

اللاشعور الكولونيالي وسؤال الهوية عند سعيد خطيبي في رواية "أربعون عاما في انتظار إيزابيل".

The colonial unconsciousness and the question of identity for Said Khatibi in the novel "Forty Years Waiting for Isabel".

د. عبد الرحمن وجليسي¹

جامعة الجزائر 2

oughlici@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/12/20	تاريخ القبول: 2022/03/22	تاريخ النشر: 2022/06/10
---------------------------	--------------------------	-------------------------

الملخص: يعالج هذا المقال مسألة الهوية والقضايا المرتبطة بها بنيويًا في فترة ما بعد الاستقلال عن طريق إدراج ما هو أدبي في ما هو سياسي بالدرجة الأولى من منظور الروائي "سعيد خطيبي"، الذي دافع عن الرؤية الاستشراقية المرتبطة بتمثيل صورة الجزائر والجزائريين مع مطلع القرن العشرين. وقد أسقط خطيبي حاضر الجزائر وواقعها مرتبطًا بكتابات وتصورات الماضي الاستعماري، وعليه فقد وقع ضحية التحيز وإعادة إنتاج تصورات وتمثيلات الاستشراق في الوقت الذي حاول فيه تحرير صوت "التابع" الجزائري من أحكام الماضي وسلبياته. الكلمات المفتاحية: الهوية، الآخر، الرد بالكتابة، التابع، اللاشعور الكولونيالي.

Abstract:

This article deals with the issue of identity and the issues related to it structurally in the post-independence period by including what is literary in what is primarily political from the perspective of the novelist "Said Khatibi", who defended the Orientalist vision associated with representing the image of Algeria and Algerians at the beginning of the twentieth century. "Said Khatibi" dropped Algeria's present and reality linked to the writings and perceptions of the colonial past. Accordingly, he fell victim to prejudice and reproduced perceptions and representations of Orientalism, while trying to liberate the voice of the Algerian "subaltern" from the judgments and negatives of the past.

Keywords: identity, otherness, writing response, subaltern, Colonial unconsciousness.

1-مقدمة:

تتخرط الرواية الجزائرية الحديثة والمعاصرة في قلب التناقضات والإشكاليات التي تمخض عنها الواقع بكل إفرازاته وانعكاساته؛ فقد عالجت كافة القضايا المحرّقة، واستقطبت إليها شتى المجالات والمسائل العالمية التي تحرّك موازين القوى، وتساهم في تشكيل وتثبيت علاقة الأنا بالآخر، وفكّكت الخطابات الفوقية التحقيرية، والأنماط والترسيمات الصنمية والصور التمثيلات والتميمات، المنتجة في الحقبة الكولونيالية والتوسع الإمبراطوري الغربي في الشرق، لكنها لم تتخلص من مفاعيل الأنساق المضمرة، التي ما فتئت تنتج وتعيد إنتاج خطابات نيو-كولونيالية تستلهم التراث الاستشراقي وتنزع إلى الهيمنة والسلطة.

يتوسّل "سعيد خطيبي" هذا الجنس الأدبي المنفتح على مختلف الفنون والأجناس الأدبية الأخرى لتأسيس "رؤيته للعالم"، ومراجعة القضايا المتعلقة بالتاريخ والهوية، ومساءلة السرديات الكبرى، ونقاط خلافية كثيرة في حياة المستشرقة "إيزابيل إبيرهات"، وعلاقتها الإشكالية بالإدارة الفرنسية، وموقفها المزدوج/الغامض فيما يخص مناهضتها وتأييدها للإمبريالية الغربية في آن واحد.

تكمن المفارقة في رواية "أربعون عاما في انتظار إيزابيل" الصادرة سنة 2016، أن صاحبها في إعادة قراءته لهذه الشخصية المتناقضة يقع في "توستالجيا" التاريخ الكولونيالي، ويعيد إنتاج البنيات والمقولات الاستشراقية لا شعوريا، رغم جهده الكبير في إعادة قراءة موروّثها، والرد على المغالين من المقدّسين والمنتقدين لها.

تدور إشكالية هذه الورقة البحثية حول المناقشات الراهنة لمسألة الهوية ومراجعة التاريخ، وإعادة كتابته من منظور محليّ لتقويض التمثيل الاستشراقي. ونصوغ الإشكالية في السؤال: ما موقف سعيد خطيبي من تاريخ الحقبة الكولونيالية؟ وكيف ينظر لمسألة الهوية في مرآة الواقع المهجّن ثقافيا وتاريخيا وجغرافيا؟ وهل يمكن إبطال الهيمنة (بالمفهوم الغرامشي) في تجلياتها المختلفة وانعتاق التابع le subalterne المقهور من تبعيته التاريخية؟

يبدو للوهلة الأولى أن رواية "أربعون عاما في انتظار إيزابيل" هي عمل أدبي مسكون بأسئلة الهوية والتاريخ، وتداخل التاريخي بالتخييلي، والمزوجة بين الماضي الكولونيالي وحاضر الجزائر، لكن الفترة التي تدور فيها أحداث الرواية، بالتحديد هي فترة حديثة نسبيا من تاريخ

الجزائر بعد الاستقلال، وغداة دخول الجزائر في نفق مظلم سيعرف بـ "العشرية السوداء"، لكنها لا تخوض في تفاصيلها بل تتراجع شيئاً فشيئاً للحديث عن "الأربعين عاماً" التي قضّاها البطل "جوزيف رينشار" في الجزائر، واستقراره في مدينة بوسعادة التي توطر الفضاء العام لأحداث الرواية بحاضرها وماضيها.

"جوزيف رينشار" محارب فرنسيّ سبعينيّ، ومناضل سابق ضد النازية في الحرب العالمية الثانية، يقرر في بداية الخمسينيات من القرن العشرين السفر إلى الجزائر، لا يتردد في مدّ يد العون للمجاهدين ومناصرة الثورة التحريرية الجزائرية، ومساعدة الرفاق في الفرار والتخفي عن أعين الشرطة الفرنسية، فقد آمن بعدالة القضية الجزائرية كما آمن بفكرة استقلالها ووقف في وجه السياسة الكولونيالية لبلده الأم وحاربها، وبهذا يكون قد استحق أعلى مراتب الشرف، ونال باستحقاق وجدارة شرف البقاء والعيش فوق أرضٍ عشقها، ودافع عنها وأنفق فيها أكثر من نصف عمره.

هذه الصورة التي يرسمها سعيد خطيبي لبطله، الذي يتوج مسيرة حياته واستقراره في الجزائر باعتناقه الإسلام على غرار كثيرين من بني قومه أغرّتهم الجزائر بجمال صحرائها وطيبة أهلها، كما تستحضر هذه الشخصية شخصيات تاريخية أخرى مرت من هنا، واستقرت بهذه المدينة الملعونة والناكرة للجميل (حسب الراوي)، أشهرهم المستشرقان الفرنسيان المثيران للجدل: ايتيان دينيه وإيزابيل إيبهرارت، اللذان يحضران بقوة في نص خطيبي بطريقة استرجاعية، ويمثّلان الطرف الثاني للمرأة العاكسة شخصية البطل بأوجهه المتعددة والمتناقضة. وسنعود إلى هذه العلاقة بشيء من التفصيل في ما بعد.

تطالعنا في الصفحة الأولى من رواية "أربعون عاماً في انتظار إيزابيل" فقرة مهمة جداً، وتعدّ المفتاح الحقيقي لهذا النص الذي يستحضر الحقبة الكولونيالية لفهم الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية لجزائر الحاضر. يقول الراوي على لسان بطله: "سأرسم لوحتين أخيرتين ليوميات إيزابيل إيبهرارت، أردمهما في حديقة البيت، بين الكرمة وشجرة الليمون، وسأفعل الشيء نفسه مع اللوحات الثلاث عشر الأخرى... سيدرك (صديقه سليمان) أنّي عشتُ لأرسم وأدفن فني، وأنّ ثقتي كبيرة في أناس يأتون من بعدي، يحفرون عميقاً، بحثاً عن لوحاتي، ليقيّموها بأنفسهم ويحكموا عليها: قد يرمونني بتهمة الاستشراق، يبصقون عليّ، ويتبولون على رسوماتي وعلى اسمي، ويتهمونني بالعمالة والفجور، وربما سيحبّونني، يحدّقون طويلاً في أعمالي، يُشيدون بها،

ثم يعلقونها حيثما شاءوا: على الحيطان العارية، أو في بيوت الله المعبقة بالبخور، أو يعرضونها في السوق الأسبوعية صباح كل جمعة، يأكلون من ثمنها القليل خبزاً حلالاً". (1)

يتصدّر المشهد في هذا المقطع موضوع الاستشراق، وهو المحرك والمؤطر لموضوع الرواية من بدايتها إلى نهايتها، خاصة إذا علمنا أن البطل جوزيف رينشار هو رسام مهووس بحياة المستشرق المغامرة إبيرهارت (Eberhardt)، وقيامه بترجمة مخطوط يومياتها النادر الذي اشتراه من موظف البلدية الجاهل بقيمته إلى لوحات زيتية، تُعرّفه أكثر بهذه المرأة المسترجلة التي سلبت عقله منذ أول لقاء يرتبه لهما الكاتب عبر مخطوطها. "إيزابيل كانت صورة مؤنثة متّي، نصرانية متأسلمة، قلقة وملعونة، لا هي أوروبية ولا هي عربية". (2)

إن السؤال الأكثر إرباكاً وإحراجاً في القرن الحالي هو سؤال الهوية، وهو سؤال عصيّ عن التحديد خاصة في علاقته مع الآخر المختلف عتاً، وتحديد الهوية يستتبعه عنف وإقصاء للطرف الآخر من المعادلة، وكثيراً ما تدخل الأهواء والأفكار الإيديولوجية، والصور النمطية والأحكام المسبقة في صياغة هوية منغلقة تدعو إلى الصراع والاقتتال.

يقول إدوارد سعيد: "إننا كثيراً ما ننسى، في خضم رغبتنا في إسماع أصواتنا للآخرين، أن العالم مكان مزدحم، وأنه إذا ما أصر كل فرد على النقاء أو الأولوية الجزرية لأن يُسمع صوته الخاص، فإن ما سنحصل عليه لن يكون إلا الطنين السيء للمعاناة اللانهائية، وفوضى سياسية دموية بدأ رعبها الحقيقي يتجلى ويصبح ملموساً هنا وهناك في عودة السياسات العرقية للظهور...، وسياسات الهوية..". (3)

إذا أردنا أن نفهم الحاضر فلا بدّ أن نعود للماضي ونتأمل فيه، ونتصيّد الأخطاء والسقطات بغية تصحيحها والتخلّص من الأفكار الجامدة المتحجرة التي تصنع واقعنا الدموي.

يعيش جوزيف ما تبقى من أيامه المعدودات من إقامته في بوسعادة في الفترة التي بدأ التشدد الديني، والكلام باسم الله يتغلب على صوت الحكمة والتعقل. أدرك، البلد على شفير الهاوية، فقدّر أنه لا يملك موضع قدم في الأرض التي دافع عنها، واستقر بها لأربعين سنة خلت.

إن الجو المشحون والانغلاق الهوياتي التي شهدتها الجزائر منذ نهاية الثمانينيات طرحت سؤال الهوية بعنف في الرواية. فالبطل حائر في أمره. هل هو جزائري أم فرنسي، وطني أم خائن؟ كما جعله يطرح سؤال المصير في ظل حكم الأوليغارشية البغيض.

لا يمكن إدراج نص "أربعون عاماً..". في الأدبيات الاستشراقية لأسباب كثيرة معروفة، أولها أن الذات الدارسة/ النازرة ليست غربية أو أوروبية، ويتّضح بسهولة أن سعيد خطيبي واعٍ جداً

بفكرة عدم الوقوع في التكرار الأعمى للتمثيلات الاستشراقية، لكنه يحلو له في كل مرة يلجأ فيها إلى التاريخ لإنارة زاوية معينة أن يتعكّز على العصا السحرية، وهامش الحرية والمناورة التي يمنحه أيها التخييل، لكي يمرّر ما يريد أن يقوله للقارئ مغلفاً تحت حجة الشخصيات الورقية، التي يحق لها أن تقول وتفعل ما تشاء دون قيود رقابية أو سلطة قمعية.

لا نكاد نشعر بحيوية الشخصية المحورية/ البطل وتطورها الذي يدفع بعجلة الحكيم قُدماً، فجوزيف رينشار عجوز في خريف العمر، يتقاسم روتينه اليومي رفقة صديق له يدعى "سليمان" تعرّف عليه أثناء نضالهم ومقاومتهم للنازيين، لكنه مرتبط روحياً مع المستشرقة إبيرهات؛ فهو يعتبر حياته وتيهانه وترحاله نسخة مكرّرة من حياتها، يتخيّلها واقفة أمامه، متنكرة بالزيّ الرجالي، تعيش مغامراتها الغرامية في غفلة من الزمن والبشر، وتجوب والآفاق والأمصّار متسكّعة متشرّدة في طول البلاد وعرضها. ينطبق عليها المثل الشعبي الجزائري "عَيْشَة راجِل"، فتاة متمردة على المجتمع والدين والأعراف، ببساطة، أنثى بهرمونات ذكر.

ما يلفت الانتباه في نص خطيبي هو الازدواجية في المعايير والأحكام التي تضعه في خانة المدافع عن حرية الإبداع والفن، والسقوط في تقديس شخصية إبيرهات وتنزيهها عن كل الشكوك والشبهات بعلاقتها مع الإدارة الفرنسية في الجنوب الجزائري، والعمل الجوسسي الذي اشتهرت به هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يُخفي مقته الشديد للمستشرق إيتيان دينيه، الرسام الذي عاش في بوسعادة ويتهمه بالارستقراطية وتشويه صورة المرأة الناييلية، والتجاسر على شرفها.

يحاول خطيبي أن يقدّم سردية بديلة ومضادة لتصحيح الصور الاستشراقية المشوّهة، وتمثّل المجتمع الناييلي من الداخل لدحض أكاذيب "دينيه" بشأن المرأة الناييلية/ الجزائرية التي ألصق بها تهمة البغاء في نصّه الشهير "خضرة: راقصة أولاد نايل".

لقد عمل خطيبي على مصادرة نص دينيه الشهير وقام بتحويله والرد على افتراءاته. يقول خطيبي على لسان البطل: "لو يطيل الرب في عمري فسوف أتمّ مشروعاً فكّرت فيه، وأكتب رواية أعنونها: "خضرة تهزّ ردفها وتلوح لعشاقها" و(المفارقة العجيبة أن هذا العنوان يبدو أكثر استشراقاً وتشويهاً من النص الأصلي). قد يبدو العنوان إيكزوتيكياً، لكنه ليس أكثر إيكزوتيكية من عنوان رواية: "خضرة، راقصة أولاد نايل" لذلك الرسام المتحرّب إيتيان دينيه،.. كان يدّعي محبة الناس، ويمقت في عمقه قبيلة "أولاد نايل" العريقة ويسخر منها، يصوّر رجالها كقوادين، ونسائها كعاهرات". (4)

من خلال هذا الموقف يبدو خطيبي ذلك الروائي المهموم بتاريخه وذاكرته، ولا يدخر جهداً في المساهمة في النضال من أجل إيصال صوت المقموعين والمقهورين، وتخليص التابع من تبعيته التاريخية، يعيد قراءة واقعه على ضوء أحداث تاريخية مصحّحاً ومتفحّصاً، ومدافعاً عن المهمّش والمقصي من بني قومه.

2- تحرير صوت التابع:

يعمل المفكر الإيراني "حميد دباشي" في كتابه (ما بعد الاستشراق) على تجاوز ونقد التمثيل الاستشراقي المرتبط بإنتاج المعرفة والهيمنة والاستعباد لجميع الشرائح المقهورة والتابعة لسلطة القوي، وهو في دعم أطروحته هذه ينطلق من كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، ويحاول تثويره بنظرية المقاومة التي أهملها سعيد (ليستدركها لاحقاً في كتابه المميّز الثقافة والإمبريالية). وعندما يتحدّث دباشي عن **إرادة المقاومة** يتطرق إلى السؤال الذي طرحته في وقت سابق الهندية "غاياتري سبيفاك" (G-Spivak): هل بمقدور التابع أن يتكلّم؟ أو بحسب الترجمة الفرنسية التي أنجزها "جيروم فيدال" لهذا الكتاب بعنوان: "هل تستطيع المرأة "التابعة" أن تتكلّم؟" (5) من أجل الإجابة عن هذا السؤال يرتكن دباشي إلى **قوة التمثيل الذاتي** كما يسميه، وهو كما يُعرّف في علم الاجتماع، امتلاك مجموعة من الأفراد القدرة على الفعل المستقل القائم على خياراتهم الذاتية، وفي محاولة التابع (Subalterne) التحرّر من قيود مستعبدته، وإبطال ميكانيزمات الهيمنة، وتفكيك السرود المتسيّدة التي ابتكرها السارد الغربي حول الشرق. وعليه إن مواضيعاً مثل الحريم وشهوانية الشرقي الخارقة والبغاء، وفسوق الشرق وميوعته يجب أن يُنظر فيها من جديد وتُمثّل تمثيلاً ذاتياً، أي أن تُفرّغ من محتوى التسلّط والسيطرة، وتُجفّف من إحياءاتها السلبية التي ما فتئت تكرر الصورة النمطية السلبية، التي كوّنوها شعراء وروائيون ورحالة على شاكلة فلوبيير ودونرفال وببير لوتي (P. Loti) وموباسان وحتى إيزابيل إيبهرارت التي لم تخرج عن هذه الدائرة الضيقة.

نتوقف هنا للتساؤل الجاد: هل تمكن سعيد خطيبي في هذه السردية من تحرير صوت التابع المقهور، وتخليصه من عملية الخنق الكولونيالي التي مارسها الكتاب الغربيون عبر سنوات كثيرة وربما قرون خلت؟

هذا بالضبط ما يسخر له قلمه وفكره، لكن هل سينتج؟

يبدو الجواب جاهزا وسهلا على القارئ في أول الأمر، خاصة إذا قرأ هذا المقطع الصريح جدا بشأن إيتيان دينيه، حين يقول: "سوف أكتب رواية أردّ فيها على ادّعاءاته، وأصحّح فيها بعض أخطائه، فقد كان لا يكتب سوى لغرض واحد: هو تحريك شهوة الفرنسي الكسول، المكبوت والعاجز عن الانتصاب أو القذف، يصوّر له جنوب البحر المتوسط على أنه مأخور كبير، أبوابه مفتوحة للقاصي والداني، والنسوة فيه يرقصن بغنج ويلحسن الأيور بحب وسخاء". (6)

ينطلق تصحيح الصورة عند خطيبي من تصيّد اللحظة التاريخية وإعادة تشكيلها بصورة صادقة وموضوعية، إنه ينبش في خبايا التاريخ ويستنفر الذاكرة الشعبية المخزونة في تراث قبائل المنطقة، يبحث في حياة الراقصة النايالية المسماة "خضرة" ويحاول أن يمنحها الحق في الكلام وسرد حياتها الحقيقية.

إن خضرة الحقيقية كما يقدّمها خطيبي هي فتاة جزائرية من أب فرنسيّ رفض الاعتراف بها تهرّباً من مسؤولية إعالتها والاعتناء بها، فتعيش مع أمها حياة الفقر والتشرد، ترافقها في ريعان شبابها إلى البار المشهور باسم "مقهى الزّهو" وتساعدّها في غسل الصحون وخدمة الزبائن، لكنها سرعان ما تكتشف موهبتها في الرقص النايالي والرقص الشرقي، الذي تحترفه في البداية كمقدمة لممارسة البغاء، لكن حياتها تتبدّل عند لقائها بفتى أحلامها الذي تتزوجه في السر رغم معارضة أهلها وتقرّر معه، لكن هذا الزواج ينتهي بالفشل، وهروبها مرة أخرى للعمل في مقهى الزهو من جديد، لتنتهي حياتها المأساوية بطعنة قاتلة من زبون فرنسي مخمور أرادت الاحتيال عليه، تاركة وراءها ولدين لم يأت ذكرهما في رواية دينيه المفبركة حسب خطيبي.

نلاحظ أن الرواية التي يقدّمها خطيبي عن هذه المرأة النايالية لدحض رواية دينيه تقترب كثيرا من حياة إيزابيل إيبهرارت، فخضرة فتاة متمردة ولا تعترف بسلطة فوقية تنعّص عليها حياتها، تمتن الدعارة بمحض رغبتها وتعيش التشرد والضياع في مجتمع ذكوري يضطهد المرأة ويستعبدّها ويضعها في مرتبة أدنى، وخضرة هنا هي تقريبا صورة طبق الأصل عن حياة المستشرقة إيزابيل إيبهرارت في طيشها وتشردّها وتمردّها على الجميع، وهي تشبها كذلك في نزواتها ومغامراتها وعزلتها وتعنتها وجراتها.

إن خطيبي يعجز عن تخيل خضرة النايالية دون استحضار شبح إيزابيل، وإذ لا يتوقف عن كيل الشتائم واتّهام "دينيه" بسذاجة الرؤية وضعف الخيال وإساءة التمثيل، لا يكف كذلك عن امتداح إيزابيل وتببيض صورتها. يقول على لسان بطله جوزيف: "لستُ أتخيل خضرة سوى شابة

ممثلة أملاً، طويلة القد، وبيضاء البشرة، تشبه إيزابيل إبيرهات في غنجها المحتشم.. لقد حَرَف إيتيان دينيه حكايتها، نزع منها صفاتها الإنسانية وجعل منها عاهرة فقط، أُحِبَّتْ لو أن إيزابيل كتبت عنها، بصدق وحب، أفضل من ذلك الرسام الباريسي فقير الحس والخيال، ربما إيزابيل أيضاً لم تسمع عنها، أو سمعت عنها وغارت من جرأتها وقوة شخصيتها، وتشبَّثها الصارم بالحياة ومسرَّاتها". (7)

يسقط خطيبي في فخ إعادة إنتاج الصور والتمثيلات الأوروبية للمرأة العربية، فهو بمجرد إسناده لمهمة الدفاع عن التابع المغيَّب بالقوة إلى رجل غربي (في هذه الحالة جوزيف رينشار) يكون قد وضعه تحت وصاية الغربي المتفوق، الذي ينبغي عليه، بل الواجب الأخلاقي يُحْتَم عليه الدفاع عن المبادئ والشعارات الغربية الطنانة، فيغدو التابع مجرد قراقوز تحت رحمة من يملك قوة التمثيل.

في هذا الصدد يقول المفكر الإيراني "حميد دباشي": "إن الصدام وجها لوجه بين الذات الأوروبية ومسألة الآخر لن يخلق الصوت الذي يمكن للتابع أن يعبر عن نفسه من خلاله، ولا يعدو كونه نغماً يضاف إلى لوحة الأصوات الكثيرة العازفة داخل البطانة الأوروبية". (8) هذا لا يعني تحامل خطيبي على بني جلدته، أو تمجيده الأرعن للمقولات والتميمات والصور المشوّهة التي تقنن الاستشراق بجميع توجهاته في ترسيخها من أجل التحكم والسيطرة وترسيخ فكرة الإمبراطورية، لكنه من حيث لا يشعر ساهم في تبني الرؤية الاستشراقية القائمة على الموازنة والمفاضلة الطريفة التي ينتصر فيها في كل مرة لصالح إبيرهات ضد دينيه، وإذا كان كلامه عن دينيه ونقده الصريح لا يخلو من صواب، إلا أنه يغيّر لهجته ويبدو أكثر تسامحاً مع إبيرهات، وهي التي كتبت عن بوسعادة والصحراء، وقدمت صورة سلبية جداً عن المرأة الجزائرية في قصصها، وخطابها المزدوج سياسياً حسب الناقد علي بهداد.

3- مقاومة أم حنين كولونيالي:

إن (إيزابيل خطيبي) هي شخصية تاريخية عابرة للزمن، توفيت غرقاً في بداية القرن العشرين وها هي تُبعث في تاريخ الجزائر المعاصر، وخطيبي هنا حرٌّ في استدعاء من يشاء وانتقاء ما يشاء، ولكنه يغفل السياق التاريخي الذي عاشت فيه هذه المستشرقة، كما يعمل جاهداً من أجل إخفاء ماضيها الكولونيالي، وتورطها باتقانٍ في فنون اللعبة الاستعمارية، وإمساك الحبل من طرفيه.

تعود إذن إيزابيل حاملة معها مبادئها الأوروبية العظيمة، ومواقفها البطولية في الدفاع عن المستضعفين والمُعذَّبين في الأرض بقناعة راسخة، وإرادة لا تقهر. وهي إذا قدَّر لها أن تشهد أحداث الخامس من أكتوبر 1988 الدامية -حسب تصور الروائي- : "الأكيد أنها لم تكن لتتخلَّى عن قناعتها في الانتصار للمواطنين المدنيين، لمُعذَّبي الأرض، وليس لأصحاب الزيَّ الأزرق وأفراد الجيش، ولو كتبت فعلاً مقالاً بهذا الشكل كانت ربّما ستطرد من البلد، كما طُرد صحافيون أجانب، بحسب ما سمعت. فعلاً، ربما كانت إيزابيل إيبرهات ستطرد من الجزائر، أو تُحاكم أو تُسجن، لو تكلمت عن ما يريد أصحاب الكراسي". (9)

إن محاولة مقارنة التطورات السياسية الحاضرة عن طريق استحضار شخصية تاريخية عنوة في نص خطيبي، مجرّدة من السياقات والظروف التي خبرتها وعاشتها في الماضي، هو تفعيل للنسق الثقافي المضمّر الذي يتماشى مع التمجيد الماضوي لأشخاص وفواعل اجتماعية، بغض النظر عن الارتباطات الصريحة أو الضمنية مع اللحظة الكولونيالية.

انغمست إيزابيل إيبرهات مثلها مثل بقية المستشرقين والمغامرين في المشروع الاستعماري الذي ينشد بناء إمبراطورية تسودها وتحكمها الروح الغربية المتفوقة، لكن إيزابيل تشكّل حالة شاذة واستثنائية في علاقتها المتوتّرة في كثير من الأحيان مع المستعمر، فهي رغم معارضتها المستميتة للنظام الكولونيالي وإرباكه من الداخل، تقدم له في نفس الوقت الكثير من التنازلات والخدمات بصفة رسمية، أو بالانصياع للمواضعات التي يرسمها لمواطنيه، ويحثّهم على تفعيلها عن طريق التمثيل اللاوعي، والاستفادة من الانتاج المتكرّر للبنيات الخطابية التسلّطية.

"وتمثّل أعمال إيبرهات، بما تجسّده من مفصلة للتماهي الفضائحي مع الآخر، إقلاقاً في الخطاب الكولونيالي الاستشراقي، عاملة على خلخلة نظامه ومُنكرة لعلاقات السلطة القمعية لديه. لكن وبسبب من معرفة نصوص إيبرهات بالآخر، وبما هي شهادة على التقييدات الاستراتيجية للنظام الكولونيالي، فإنها تستحيل إلى مصدر من المعلومات تقيد منه السلطة الكولونيالية التي تعارضها. ممّا يتيح للنظام إنتاج كيان كولونيالي أكثر فاعلية". (10)

على الرغم من وجود بعض الاشارات العابرة في نص خطيبي إلى إمكانية تورّط المستشرقة إيبرهات في وحل الاستعمار، فهو لم يُدْنه أو يتّهمها بالعمالة، أو أقلّه التعاون مع الإدارة الاستعمارية، وجمع المعلومات وتقييم السياسة الفرنسية في بعض المناطق؛ ناهيك عن الهدية القيّمة التي توفرها أعمالها الأدبية وغير الأدبية لفهم السكان المحليين، بحكم احتكاكها المتواصل معهم، واتقانها لغتهم ومعرفتها بنقاليدهم. بل تذهب أبعد من ذلك بكثير في ترخّلها وتطفّلها على

الفضاءات المحرّمة على المرأة الأوروبية عن طريق التنكّر بالزيّ الذكوري المحلي، فهي ترتاد الزاوية الصوفية وحمّامات الرجال، كما لا تجد حرجا في الاحتكاك بالرجال وولوج عالمهم.

في واحدة من نوبات الاحباط التي عانت منها كثيرا، تقرّر إيبرهات الهروب من الرقابة التي يسلّطها النظام الكولونيالي، فتتوجّه في رحلة سياحية إلى الساحل التونسي عبر القطار، حيث تقاسمت حياة التطلّع والترحلّ مع مجموعة من الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي (Spahis). وتقرّر الانخراط مع عميل فرنسي في جباية الضرائب من السكان المحليين. "وتشخص علاقة التبعية المتطفلة مع الأرحبي (العميل) ومجموعة من السباهيين مثالا على موقف إيبرهات السياسي المزوج تجاه الإمبراطورية. واتّسعت هذه العلاقة لتغدو مشاركة في أعمال الحملة. فقد قرّرت بعد أن ضجرت من تبطلّها، مد يد العون للأرحبي في عمله الإلزامي المتعلّق بجباية الضريبة التي فرضها الاستعمار الفرنسي على كل مواطن من السكان المحليين. فعلى الرغم من إدراكها لطبيعة "عملها الشرير"، فإنّها عملت وإن بتمنّع، كاتبة العدل تُعين عميل الاستعمار على حبس المحليين الفقراء، ومصادرة ممتلكاتهم وذلك لتخلّفهم عن دفع الضرائب". (11)

إن تواطؤ إيبرهات مع النظام الكولونيالي وتعاونها مع إدارته حقيقة لا ينكرها إلّا قلم واقّع تحت سيطرة البنى الاستشراقية، يعمل على انتاجها وتقيحها، وإعادة توزيعها لا شعوريا، وسعيد خطيبي هنا واقّع تحت سيطرة الصورة النقيّة للماضي الصوفي المنعق من سياقاته التاريخية لهذه الرحالة الاستثنائية، يقيده إليها الحنين إلى عالم بلا حدود، تنتصر فيه طوباوية الماضي على حساب الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها الجزائر منذ الاستقلال إلى الآن.

إن مدينة بوسعادة في رواية خطيبي ما هي إلّا صورة مصغّرة من بلده الذي اغتُصب استقلاله، وصودرت طاقاته وأحبطت إرادته؛ جزائر بعد الاستقلال بفشل مشاريعها التنموية وخططها الاقتصادية، وديكتاتورية نظامها السياسي، وإغراقهم البلد في وحل التخلف والفقر والإقصاء وتهميش الشباب والنساء والمقهورين وغيرهم. إنها مدينة لا تتّسع للجميع، أو بالأحرى لا تقبل التنوّع والاختلاف والإبداع. مدينة جائعة تجتّر خيبات القادة والمسؤولين الأنانيين، وتبكي عزلتها وانكماشها، وموت مرافقها الثقافية التي عرفتها إبّان الحقبة الاستعمارية وبعد الاستقلال مباشرة.

يفاجئنا سعيد خطيبي بصورة فجّة عن المرأة الناييلية التي ادّعى أنّه يكتب من أجل تحريرها، وإسماع صوتها المقموع. عندما كان جوزيف رينشار يساوم الرسام الموهوب عبد الهادي لكي

يبيعه لوحته "مبروكة" كي يأخذها معه كتذكّار عن هذه المدينة "المغترة بنفسها"، فهو يريد الحصول عليها بأي ثمن، لأنها اللوحة التي تعبّر عن "لاشعوره الجنسي" المكبوت اتّجاه المرأة النيلية/ الشرقية. وهي : "بورترى تلك الدرويشة الثلاثينية السّمراء، ذات العينين البنيتين الكبيرتين، والشعر المنكوش، التي تمطر السماء على يديها كما يعتقد البعض، وتقبض بسببها، التي حبلت من مختلّ آخر يشبهها، يُدعى العُقلي، كان حين يملّ من التسوّل والتسكّع، في الطرقات والحارات، يضاجعها خلف مزبلة السوق المغطّاة، غير مبالٍ بفضول المارة، وعيونهم المتلصّصة، الذين كانوا أحيانا يغطّونها ببطانية أو بستائر بالية، سِتراً لحميمتهما، ولتجنبيهما أعين الصغار". (12)

إن بشاعة هذه الصورة لا نجدّها إلا عند أكثر المستشرقين حسيّة، وأشدّهم تعلقاً بموضوع رغبته الجنسية. وهذه الصورة تحيلنا مباشرة إلى حسيّات غوستاف فلوبر المبتدلة؛ وتفكيره في المرأة الشرقية كموضوع رغبة، والسبيل الأمثل لتحقيق مغامراته الجنسية بعيداً عن الرقابة الأخلاقية لعصره.

لا أحد يجهل سبب زيارة فلوبر إلى الشرق مرتع المذات والفردوس الأرضي الذي يحلم به هذا الأوروبي البورجوازي. ومبروكة التي تتبادل الدور مع "خضرة" دينيه، ويُعاد تمثيلها وفق منظور كاتب شرقي متحرّب لمستشرق مثير للجدل، هو صورة كاريكاتورية للمرأة النيلية، المهمّشة في مجتمعتها، والتي تعيش عابثة ومتحرّرة من قيود المجتمع الذكوري الذي يستعبدّها.

يتحدّث خطيبي عن مبروكة النيلية بنفس اللهجة التي يتحدّث بها فلوبر عن الراقصة الشرقية، التي تغدو النموذج الذي يقاس عليه كل كتابة غربية عن المرأة الشرقية. كتب فلوبر في إحدى رسائله إلى صديقه لويس بوييه، مدّعياً أن ما شاهده في مصر حقيقة شهد عليها: "مؤخراً توفي في القاهرة ناسكٌ مسلمٌ عُرِف بالوليّ، وكان بالحقيقة معتوهاً، إلّا أن الناس كانوا يعتبرونه قدّيساً يسكنه الله. فكانت النساء المسلمات تقصدنه وتمارسن الجنس معه إلى درجة أنّه قضى نحبه من فرط الإرهاق، إذ كان مهتاجاً من الصباح حتّى المساء. بالله عليك يا بوييه لو كنت مكان هذا الولي !" (13)

إذا كان فلوبر يتعكّز على أسلافه المستشرقين والرحالة الذين زاروا الشرق وكتبوا عنه بهذه الطريقة المربعة، فكيف هو الحال مع خطيبي. لقد وقع خطيبي ضحية قراءاته الاستشراقية من جهة، ومن جهة أخرى ضحية منظوره الاختزالي في نقد طرف والإعلاء من مرتبة طرف آخر،

متغاضيا عن الحقيقة التاريخية وحساسيات السياق الذي يحفّ بحيوات المستشرقين وحقيقة تورّطهم في المشروع الاستعماري ومناصرة فكرة الإمبراطورية المترامية الأطراف.

4-خاتمة:

لم يستطع التابع أن يتحرّر من تبعيته في رواية "أربعون عاما في انتظار إيزابيل"، وبقي السكان المحليون والطبقات المهمشة خاضعين لرحمة سوء التمثلات عند روائيين لم يتحرّروا بعد من عملية إنتاج وإعادة إنتاج البنى الاستشراقية وإعادة توزيعها، والسبب المرجح وراء هذا التوجه عند خطيبي وأمثاله هو المراهنة على المواضيع الخلافية التي تسمح للقارئ من التحليق بمخيّلاته في الفضاءات المحظورة، والتعالي على السلطة والتاريخ، والانفلات من كل أنواع الرقابة.

ولا يسعنا في مثل هذه السياقات التاريخية، ومراجعة الموروث الأدبي والنقد والفلسفي سوى العمل بنصيحة المفرد المغربي "عبد الكبير الخطيبي، حين يدعونا إلى تبني "نقد مزدوج: ينصبّ علينا كما ينصبّ على الغرب، ويأخذ طريقه بيننا وبينه، فيرمي إلى تفكيك مفهوم الوحدة التي تتقل كاهلنا، والكلية التي تجثم علينا، وهو يهدف إلى تقويض اللاهوت، والقضاء على الإيديولوجية التي تقول بالأصل والوحد المطلقة". (14)

إن الهوية اليوم لم تُعد بناء منجزاً ولا نموذجاً مثاليا تفرضه فئة على أخرى، بل الهوية أصبحت إنجازا جماعيا يذوّب الآراء والقناعات في بوتقة واحدة، ويحتفي بثقافة الاختلاف والتعدّد والتشارك من أجل الحياة المشتركة في رحاب الإنسانية المنفتحة على جميع الأطراف. إن الهوية الجزائرية هي أكثر من ذلك فهي مطالبة بالاشتغال على الذاكرة ومراجعة الماضي وإعادة قراءة التاريخ في ضوء المعطيات والتطورات الحديثة، التي من شأنها أن تعمل على إعادة صياغة مفهوم الهوية المركّبة الجامعة، وتحرير التاريخ والعقل والذاكرة من جميع أشكال وروافد النيوكولونيالية.

الهوامش:

- 01-سعيد خطيبي؛ أربعون عاما في انتظار إيزابيل، منشورات ضفاف/بيروت، منشورات الاختلاف/الجزائر ط01، 2016، ص 11.
- 02- خطيبي؛ المصدر نفسه، ص 26.
- 03-إدوارد سعيد؛ الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط3، 2004، ص 65+66.
- 04-خطيبي؛ أربعون عاما...، ص 46.
- 5-Voir ; Gayatri Chakravorty Spivak; LES SUBALTERNES PEUVENT-ELLES PARLER ? Traduit de l'Anglais par Jérôme Vidal, Editions Amsterdam, Paris, 2009.
- 06-خطيبي؛ أربعون عاما...، ص 46.
- 07-خطيبي؛ أربعون عاما...، ص 51.
- 08-حميد دباشي؛ ما بعد الاستشراق، تر: باسل عبد الله وطفة، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط01، 2015، ص 183
- 09-خطيبي؛ أربعون عاما...، ص 96.
- 10-علي بهداد؛ الرحالة المتأخرون، الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري، تر: ناصر أبو الهيجاء، منشورات كلمة، أبو ظبي، ط01، 2012، ص 237.
- 11-بهداد، الرحالة المتأخرون، ص 245.
- 12-خطيبي؛ أربعون عاما...، ص 114.
- 13- نقلا عن جان جيبور؛ النظرة إلى الآخر في الخطاب الغربي، دار النهار، بيروت، ط01، 2001، ص 293.
- 14-عبد الكبير الخطيبي؛ النقد المزدوج، تر: أدونيس وآخرون: منشورات الجمل، ط01، 2013، ص 05-06.

*المصادر والمراجع:

- 1- إدوار سعيد؛ الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط03، 2004.
- 2- جان جبّور؛ النظرة إلى الآخر في الخطاب الغربي، دار النهار، بيروت، ط01، 2001.
- 3- حميد دباشي؛ ما بعد الاستشراق، تر: باسل عبد الله وطفة، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط01، 2015.
- 4- سعيد خطيبي؛ أربعون عاما في انتظار إيزابيل، منشورات الاختلاف/منشورات ضفاف، ط01، 2016.
- 5- عبد الكبير الخطيبي؛ النقد المزدوج، تر: أدونيس وآخرون: منشورات الجمل، ط01، 2013.
- 6- علي بهداد؛ الرحالة المتأخرون، الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري، تر: ناصر أبو الهيجاء، منشورات كلمة، أبو ظبي، ط01، 2012.
- 7- Gayatri Chakravorty Spivak; LES SUBALTERNES PEUVENT-ELLES PARLER ? Traduit de l'Anglais par Jérôme Vidal, Editions Amsterdam, Paris, 2009.